صفية بنت حيي رضي الله عنها

هي صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن أبي خبيب من بني النضير، وهو من سبط لاوي بن يعقوب، ثم من ذرية هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، كانت قبل إسلامها تحت سلام بن مشكم، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خيبر، فصارت صفية مع السبي، فأخذها دحية الكلبي، ثم استعادها المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأعتقها وتزوجها، كانت رضي الله عنها سيدة شريفة عاقلة فاضلة ذات حسب وجمال ودين رضي الله عنها، وكانت وفاتها رضي الله عنها سنة اثنتين وخمسين في خلافة معاوية رضي الله عنه[1].

وقد وردت أحاديث كثيرة بذكر مناقبها رضي الله عنها وأرضاها منها:

1 - من إكرام الله لها أن النبي ﷺ تزوجها وجعل عتقها صداقها، فقد روى الشيخان في صحيحيهما من حديث طويل عن أنس رضي الله عنه في غزوة خيبر وفيه: "قال وأصبناها عنوة[2] وجمع السبي فجاءه دحية، فقال: يا رسول الله أعطني جارية من السبي فقال: **«اذهب فخذ جارية»** فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك قال: **«ادعوه بها»** قال: فجاء بها فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: **«خذ جارية من السبي غيرها»** قال: وأعتقها وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها أعتقها وتزوجها حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم فأهدتها له[3] من الليل فأصبح النبي ﷺ عروساً... الحديث[4].

وعند الإمام مسلم أيضاً: من حديث أنس وفيه قال: "ووقعت في سهم دحية جارية جميلة، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أم سليم تصنعها له وتهيئها

---

(1) الطبقات الكبرى 12/8 - 129، المستدرك 28/4 - 29، الاستيعاب على حاشية الإصابة 337/4 - 339، أسد الغابة 490/5 - 491، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص/138، سير أعلام النبلاء 231/2 - 238، البداية والنهاية 50/8، الإصابة 337/4 - 339.

(2) عنوة: أي: قهراً لا صلحاً.

(3) فأهدتها له: أي: زفتها له ﷺ.

(4) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري 469/7، صحيح مسلم 1043/2 - 1044 واللفظ له.

قال: وأحسبه قال: وتعتد في بيتها[1] وهي صفية بنت حيي. قال: وقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد، قالوا: إن حجبها فهي امرأته وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عجز البعير فعرفوا أنه قد تزوجها" الحديث[2].

هذان الحديثان اشتملا على بيان فضيلة ظاهرة لأم المؤمنين صفية رضي الله عنها حيث أكرمها الله - عز وجل - بالدخول في الإسلام وكتب لها الزواج برسول الله ﷺ حيث صارت بذلك في أمهات المؤمنين اللاتي هن أزواج نبيه ﷺ في الدنيا والآخرة.

والحديثان يوهم ظاهرهما التعارض إذ الأول يفيد أنه ﷺ أذن لدحية في أخذه جارية من السبي، فأخذ صفية فاستردها منه، والثاني يفيد أنها وقعت في سهمه واشتراها بسبعة أرؤس، وقد ذكر الجمع بينهما الحافظ حيث قال: "قال السهيلي: لا معارضة بين هذه الأخبار فإنه أخذها من دحية قبل القسم، والذي عوضه عنها ليس على سبيل البيع، بل على سبيل النفل قلت: وقع في رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عند مسلم أن صفية وقعت في سهم دحية، وعنده أيضاً فيه "فاشتراها" من دحية بسبعة أرؤس "فالأولى في طريق الجمع أن المراد بسهمه هنا نصيبه الذي اختاره لنفسه، وذلك أنه سأل النبي ﷺ أن يعطيه جارية فأذن له أن يأخذ جارية، فأخذ صفية فلما قيل للنبي ﷺ إنها بنت ملك من ملوكهم، ظهر له أنها ليست ممن توهب لدحية لكثرة من كان في الصحابة مثل دحية، وفوقه وقلة من كان في السبي مثل صفية في نفاستها، فلو خصه بها لأمكن تغير خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه واختصاص النبي ﷺ بها، فإن في ذلك رضا الجميع، وليس ذلك من الرجوع في الهبة من شيء، وأما إطلاق الشراء على العوض فعلى سبيل المجاز، ولعله عوضه عنها بنت عمها أو بنت عم زوجها[3]، فلم تطب نفسه فأعطاه من جملة السبي زيادة على ذلك.

---

(1) أي تستبرئ فإنها كانت مسبية يجب استبراؤها وجعلها في مدة الاستبراء في بيت أم سليم.

(2) صحيح مسلم 1045/2 - 1046.

(3) وقع عند ابن إسحاق أن صفية سبيت من حصن القموص، وهو حصن ابن أبي الحقيق، وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسبي معها بنت عمها، وعند غيره بنت عم زوجها فلما استرجع النبي ﷺ صفية من دحية أعطاه بنت عمها، انظر كتاب المغازي والسير ص/264، الإصابة 338/4، فتح الباري 469/7 - 470.

وعند ابن سعد من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس وأصله في مسلم: "صارت صفية لدحية فجعلوا يمدحونها فبعث رسول الله ﷺ فأعطى بها دحية ما رضي"[1].

2 - ومما دل على عظيم شأنها وجلالة قدرها أن النبي ﷺ كان يضع لها ركبته، لتصعد من عليها للركوب على البعير حال رجوعه عليه الصلاة والسلام من غزوة خيبر، فكانت تجله وتكرمه عليه الصلاة والسلام من أن تضع رجلها على فخذه، وإنما كانت تضع ركبتها على فخذه حتى تركب، فقد روى البخاري بإسناده إلى أنس رضي الله عنه قال: "قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فخرج حتى بلغنا سد الصهباء حلت، فبنى بها رسول الله ﷺ، ثم صنع حيساً في نطع صغير، ثم قال لي: آذن من حولك، فكانت تلك وليمته على صفية ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب"[2].

وقال الحافظ ابن حجر: "ووقع في مغازي أبي الأسود عن عروة فوضع رسول الله ﷺ لها فخذه لتركب فأجلت رسول الله ﷺ أن تضع رجلها على فخذه، فوضعت ركبتها على فخذه وركبت[3].

3 - روى محمد بن سعد بأسانيده في حديث طويل وفيه: "لم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها، فأبت عليه فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء وهي على بريد من خيبر نزل بها هناك، فمشطتها أم سليم وعطرتها، قالت أم سنان الأسلمية: وكانت من أضوأ ما يكون من النساء فدخل بأهله، فلما أصبح سألتها عما قال لها؟ فقالت: قال لي: "ما حملك على الامتناع من النزول أولاً" قالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده وذكرت أنه سر بها ولم ينم تلك الليلة لم يزل يتحدث

(1) فتح الباري 470/7، شرح النووي 220/9 - 221.
(2) صحيح البخاري 52/3.
(3) فتح الباري 480/7.

معها"[1].

فهذا الحديث اشتمل على فضيلة ظاهرة لأم المؤمنين صفية رضي الله عنها، فلقد خشيت على النبي ﷺ من غدر اليهود إن هو نزل منزلاً قريباً من خيبر، لأنها خبيرة بكيد اليهود وشدة بغضهم وحقدهم على الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام، ولذلك امتنعت من النزول في المنزل الأول الذي كان يبعد عن خيبر ستة أميال، ولما بلغ الصهباء نزل بها، وسألها عن سبب امتناعها عن النزول أولاً أوضحت له أنها تخشى عليه من اليهود، فزادها ذلك منزلة ورفعة عنده عليه الصلاة والسلام، وكل هذا ناشئ عن الإيمان الصادق الذي أنساها قتل أبيها وزوجها من أجل كفرهما بالله وصدهما عن سبيل الله، ولذلك سر بها المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلم ينم تلك الليلة، بل استمر في مبادلتها الحديث رضي الله عنها وأرضاها.

4 - وورد التنوية بشرف نسبها فيما رواه أبو عيسى الترمذي بإسناده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: **«ما يبكيك؟»** قالت: قالت لي حفصة: إني ابنة يهودي فقال النبي ﷺ : **«وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟»** ثم قال: **«اتقي الله يا حفصة»** [2].

فهذا النص النبوي تضمن ذكر فضيلة ظاهرة لصفية رضي الله عنها حيث بين النبي ﷺ أنها من سلالة نبوية، فقد هون عليها ما بلغها من أم المؤمنين حفصة حيث بين لها أنها ابنة نبي وهو هارون بن عمران عليه السلام، وأن عمها لنبي وهو موسى بن عمران عليه السلام، وأنها لتحت نبي، وهو أفضل البشر وسيد ولد آدم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ومعنى قوله ﷺ : **«ففيم تفخر عليك؟»** أي: في أي شيء تفخر حفصة عليك ومع أن كلمة حفصة رضي الله عنها كلمة صحيحة بالنظر إلى أبيها لم يرضها النبي ﷺ لأن التفاخر من عادات الجاهلية ولذلك حذر منه النبي ﷺ.

5 - ومما هو مفخرة في حقها مدح النبي ﷺ لها بالصدق فقد أخرج ابن سعد عن

(1) الطبقات 120/8 - 122 فقد رواه بثلاثة أسانيد لأبي هريرة وإلى أنس بن مالك وإلى أم سنان الأسلمية.
(2) سنن الترمذي 3894 ثم قال عقبه: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده 153/3، وصححه الألباني.

زيد ابن أسلم أن نبي الله ﷺ في الوجع الذي توفي فيه اجتمع إليه نساؤه، فقالت صفية بنت حيي: أما والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمزنها أزواج النبي ﷺ وأبصرهن رسول الله ﷺ فقال: **«مضمضن»** فيقلن من أي شيء يا نبي الله؟ قال: **«من تغامزكن بصاحبتكن والله إنها لصادقة»** [1].

6 - ومنها ما رواه أبو عمر بن عبد البر فقال: وكانت صفية حليمة عاقلة فاضلة وروينا أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب فقالت: إن صفية تحب السبت وتصل اليهود فبعث إليها عمر فسألها فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أن أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً وأنا أصلها، قال ثم قالت للجارية: وما حملك على ما صنعت قالت: الشيطان. قالت: اذهبي فأنت حرة[2].

7 - لما اجتمع أهل الفتنة على الخليفة الثالث ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وحصروه في الدار، وقطعوا عليه الماء والطعام كان لها رضي الله عنها موقف طيب تذكر به في الآخرين، فقد حاولت بقدر استطاعتها إيصال الماء والطعام إلى عثمان رضي الله عنه. فقد روى ابن سعد بإسناده إلى كنانة بن نبيه - مولى صفية - قال: كنت أقود بصفية لترد على عثمان، فلقيها الأشتر[3] فضرب وجه بغلتها حتى مالت فقالت: ردوني لا يفضحني هذا قال الحسن في حديثه: ثم وضعت خشباً من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام[4].

فقد كانت رضي الله عنها من سيدات النساء عبادة وورعاً وزهادة وبراً وصدقة رضي الله عنها وأرضاها.

* * * * *

(1) الطبقات الكبرى 128/8، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء 235/2، والحافظ في الإصابة 339/4.
(2) الاستيعاب على حاشية الإصابة 339/4.
(3) اسمه مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث بن جزيمة بن مالك بن النخع النخعي الكوفي المعروف بالأشتر، كان أحد الساعين في الفتنة زمن عثمان رضي الله عنه وأحد المؤلبين على عثمان وشهد حصره، هلك سنة 37 "انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 11/10 - 12.
(4) الطبقات الكبرى 128/8.